الوعي السياسي للأسر البصرية في العهد العثماني دراسة تاريخية

الاستاذ المساعد الدكتور
طالب جاسم محمد الغريب
جامعة البصرة- مركز الابحاث والوثائق

في البداية لا بد من إيضاح مفهوم الوعي السياسي الذي يرد مصطلحه في هذا البحث لكي نتجاوز أي التباسا لدى القارى ، فالباحث عندما ينظر الى مفهوم الوعي السياسي يعني العمل السياسي الذي يميز حقبة من الحقب التاريخية .

تكمن صعوبة الموضوع في كون الباحث يطمح الى متابعة المسار التاريخي لتحولات السلطة وأنماطها في المجتمع ، فضلا عن كونه خاضعا لتجربة الحكم العثماني قرونا عديدة وحمل داخل تركيبته ومؤسساته الاهلية والحكومية خصائص ومرجعية النص الشرعي المتمثل بفتاوى هيئات الفقهاء المعنية التي تعنى بها السلطة الى جانب جملة من معطيات التاريخ الاجتماعي والظواهر القائمة على الاعراف والتقاليد في المدينة .

من هنا فان العمل السياسي في البصرة كبقية الولايات العثمانية اتخذ مسارات معقدة من التعبير فهو من جهة يحمل اشكال العلاقات الاجتماعية المختزل في الوعي ومستمد من تجربته الذاتية ذات الاصالة التاريخية ومن جهة اخرى فان تجربة الارث الاسلامي وتطبيقاته اليومية من حيز الوجود الانساني للمجتمع الذي يمثل "النص الشرعي " المتمثل بالوظيفة الدينية التي يؤديها القاضي والنقيب والمفتي ضمن الية عملهم اليومية قد اضافت عليه شيئا اخر .

هذه الالية اقرتها سلطة المجتمع وزادها عمقا الاحتكاك وعوامل التفاعل المباشر عن قصد او عن غير قصد افرزت فيما بعد مدلولات جديدة في العمل السياسي سواء كانت من موقع الاستعارة ام من موقع الاستيعاب والتبني .

يبقى السؤال يطرحه البحث قبل ان يطرحه القارى هو ما المقصود بالوعي السياسي الذي هو وعي وفكر سياسي وهل يعني المصطلح الذي يتناول حاليا النظرية السياسية او ايدلوجية معينة تقتصر على جماعة من الناس ؟ او ما هي تلك الفكرة السياسية التي تبنتها النخبة البصرية ثم طورتها وناضلت من خلال حزب معين ؟ ام نعني بالعمل السياسي الذي لا يخرج عن روح العصر والمتمثل بالسلطة المحلية المرتكز على المؤسسة التي سيطرت على عقلية المجتمع البصري التي اصبحت تمثل السلطة المحلية في مفهوم الاهالي ؟ او من خلال دورها الوظيفي من خلال الالتزام او النطارة ؟

ان الفكر السياسي او الوعي السياسي المقصود هنا لا يعني عصريا قام على نظريات فكرية ذات مفاهيم ومقاصد واضحة ظهرت على الساحة البصرية خلال العقد الثاني من القرن العشرين الذي يمثل انعكاسا لتلك الثقافة السائدة انذاك انطلاقا من ان الشكل السياسي للمجتمع يعكس ثقافة ذلك المجتمع . لكن نعني به الوعي السياسي الذي ساد حقبة من الزمن وماطرا عليه من تحولات بسبب عوامل داخلية وأخرى خارجية ادت دورا مهما في بلورته عبر نخبة معينة شكلت فيما بعد حركة معارضة للإدارة العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى تمثلت بالحركة الوطنية .

ولكي نفهم العلاقة بين الوعي السياسي وحركة المجتمع لابد من تتبع الاحداث السياسية والعوامل التي ادت من ثم الى انتاج الوعي السياسي .

احتل العثمانيون الوطن العربي يملك في الولايات العربية اقل ممن سواها في الولايات غير العربية . اذ ان الوطن العربي يملك ارثا حضاريا خاصا به استمده من انموذج ((الخلافة الاسلامية)) اما عن طريق تتبع مؤلفات السلف او من خلال الرويات الشفهية التي ورثها الابناء عن الاباء. ولهذا لم يستطع الارث العثماني ان يقاوم الارث العربي الاسلامي ومن ثم لم يستطع ازاحة الفكر السائد ليكون الارث العثمانيين بديلا عن الارث الحضاري للوطن العربي[١].

من هنا فان الارث العربي الاسلامي كان اكثر تأثيرا في التشريعات العثمانية في الولايات العربية ومما يؤكد هذه الحقيقة ان معظم علماء العثمانيين درسوا على ايدي العلماء العرب[٢] . ولهذا السبب احتل علماء العرب موقعا متميزا بين العلماء العثمانيين فضلا عن ذلك فقد وجدت السلطة العثمانية في الولايات العربية نظاما قائما بذاته مستمدا

من الشرعية الاسلامية لم تستطع ان تأتي بأحسن منه او يوازيه ولهذا اعتمدت عليه لاسيما في المناطق البعيدة مثل البصرة لكي يحفظ لها النظام والاستقرار في منطقة لم تستطع قدراتها العسكرية حماية تلك المناطق التي عدنها الدولة العثمانية من الدرجة الثانية في الاهمية خلال القرن السادس عشر هذا من جانب ومن جانب اخر ان الدين يمثل مكونا ثقافيا في رسم بنية الفكر الاجتماعي السائد انذاك لما تمثله القيم الدينية من دور في تأسيس ركائز الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع مغلق على نفسه لم يؤثر فيه المؤثرات الخارجية بعد كما هو في الولايات العربية .

ولهذين السببين اعتمدت السلطة العثمانية على المؤسسة الدينية التي جعلتها جزاء من جهازها الاداري والسياسي شكلت في الواقع نافذة المؤسسة الحاكمة في المجتمع[٣] . ولهذا كان المجتمع البصري انذاك يبدو وكأنه عائلة واحدة على الرغم من تكوينه من مجموعة من عائلات مثل عائلة حبيب الله صاحب الحلقة القادرية وعائلة الرديني صاحبة الحلقة الردينية والنقيب صاحبة الحلقة الرفاعية والكواز صاحبة الحلقة الكوازية وعائلة عبد السلام وارثة الحلقة الكوازية والحللي مفتي البصرة والطبطبائي مفتي المذهب الشافعي في البصرة ة.....الخ .

السؤال الذي يطرح هنا كيف ظهر تأثير هذه العائلات على المجتمع البصري من خلال مركزها ؟ نستطيع القول ان الوظائف السلطوية كانت بيد المتسلم والدفتردار والقو مندان وهم موظفون اتراك وان العائلات البصرية لم تستطع ان تشاركهم في مثل هذه المناصب ألا ان هذه العائلات وجدت في البصرة مجالا في قطاع الوظائف الدينية اذ شكل عبر مراتب الإفتاء والقضاء والنقابة وإمامة الجوامع وترأس الحلقات الدينية احدى المجلات للتعبير عن السلطة المحلية فالقاضي قبل استحداث التنظيمات العثمانية قام بمهمات سلطوية عديدة ومتنوعة فهو القاضي للأحوال الشخصية ومحكمة التجارة وهو الذي يثبت مشايخ الحرف ويقضي في منازعاتهم كما يشرف على الاوقاف ويعين المتولين عليه[٤].
اما النقيب وقد حصر الماوردي الاعمال التي اوكلت له باثنى عشر حقا[٥]. كما ان صاحب الحلقة الدينية يتمتع بوظائف عدة كون الحلقة لديها مردين ومدارس وتقدم خدمات كثيرة الى المجتمع . من هنا اصبح تنظيم المدينة المحلي يوازي المؤسسة العسكرية للحكم العثماني تنظيما منها (الوالي والحاميات العسكرية)[٦] .

السؤال الاخر الذي يطرح ما علاقة ذلك في تبلور الوعي السياسي ؟ وللإجابة عنه لابد من استعراض دور الوجهاء في المدينة .

ان قيام هؤلاء الوجهاء بإعمالهم اليومية المتفاعلة مع المجتمع البصري من جهة واعتماد السلطة العثمانية عليهم في استقرار الامن والدفاع عن البصرة من جهة اخرى جعل منهم سلطة مؤثرة في المجتمع لا ينظر لهم على انهم يمثلون الشريعة الاسلامية ويراقبون تنفيذها في المدينة فحسب بل يمثلون السلطة السياسية التي يمكن الركون اليها عند أي خطر خارجي يداهم مدينتهم .

وهنا تبلور الحس القيادي لهذه الجماعة وما يؤكد ذلك وصف لوريمر الدقيق حول قيادة عبد السلام مسئول الحلقة الكوازية في البصرة وتطوع عدد كبير من البصريين ليكونوا نواة جيش محلي للدفاع عن البصرة لمجابهة الخطر لمدينتهم(٧)

لم يكن عبد السلام انذاك واليا او متسلما عثمانيا او احد مفاصل السلطة العثمانية الرسمية وإنما كان ((حجة زمانه وفريد عصره في العلوم الدينية)) وصاحب حلقة ضمن مؤسسة دينية تعمل في البصرة (٨) . ألا ان الاهالي وجدوا في هذه الشخصية ملاذا يمكن الاعتماد عليه في الدفاع عن البصرة .

ان هذه القيادة التي تزعمها عبد السلام كان وراءها وعيا سياسيا قبل ان يكون حدثا سياسيا منفذا على الواقع العملي فهو عندما حاول انقاذ المدينة لكونه يترأسها روحيا وليس كونه واليا او حاكما سياسيا انيطت بمهمة الدفاع عن هذه المدينة في نطاق النظام السياسي الذي كانت تتبناه السلطة العثمانية تجاه السلطة الفارسية .

ان هذا العمل السياسي قد منح العائلة اهتماما في بقائها لأنها تشكل كيانا سياسيا مهما للدفاع عن المدينة وحمايتها من أي خطر خارجي يهددها . وهذا قبلت العائلة لقب دنيوي منحه العثمانيون لها وهو ""باشا عيان" ويعني (كبير المتنفذين او الاعيان) تثمينا لمواقفها الوطنية فانبثق الوعي السياسي الوطني من رحم الوعي الديني الذي تمثله مستويات معينه من التفكير .

ظهر بوضوح دور هذه النخبة المحلية سياسيا من خلال الدبلوماسية الفارسية عند احتلالها عام ١٧٤٣ فقد تخطت السلطات الفارسية السلطة العثمانية المتمثلة بالوالي وفاتحت الحوار مع القاضي والنقيب وشيخ الطريقة في المدينة لاعتقادهم ان هؤلاء تقع

عليهم مسؤولية المدينة وعلى عاتقهم تقع ادارة شؤونها والدفاع عنها لما لهم من تأثير واضح في المجتمع البصري يفوق تأثير السلطة العثمانية في هذه المدينة وتأكيدا على ذلك كانت الرسائل توجه لهم بالاسم خاصة .

((الى العلماء الكرام والنقباء العظام والإشراف والمشايخ من اهل البصرة خصوصا الشيخ درويش والشيخ ابراهيم والسيد رمضان والسيد طالب))[٩]

وهنا يأتي السؤال من هو الشيخ درويش الذي ورد اسمه:

((ان الشيخ درويش ال عبد السلام كان رئيسا للكواوزة وهو اوفى فقها في البصرة))[١٠]

اما الشيخ ابراهيم فهو حفيد عائلة حبيب الله صاحب الحلقة القادرية في البصرة والذي اقتطع لها الوالي يوسف سنان باشا (٩٨١-٩٩٥) ١٥٧٣م-١٥٨٦م) الأراضي في جزيرة العين وابي الخصيب وسيحان مكافأة منه لخدمات العائلة عندما ترأست الحلقة الدينية[١١] .

اما السيد طالب فهو ابن السيد اسحاق السيد طالب صاحب الحلقة الرفاعية وكانت العائلة مسئولة كما ذكرها نيبور عن حماية القوافل التجارية التي تسلك طرق بصرة –حلب[١٢].

اما لسيد رمضان فهو ابن السيد يعقوب الرفاعي كان نقيبا للإشراف في البصرة وهو رئيس للجماعة المنحدرة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم[١٣]

فعليه لم يكن اتصال قادة الفرس بهذه الشخصيات اعتباطا وإنما كان ينم عن دراسة وافية لهذه الشخصيات وتأثيرها على المجتمع البصري لأنهم يملكون القيادة الحقيقية للدفاع عن البصرة .

ان تبلور الوعي السياسي لهذه النخبة يطهر بوضوح من خلال جواب هذه النخبة على رسائل المسئولين الفرس والتي تدل على عمق وعيهم في حماية مدينتهم اذ كان جوابهم . ((معلومكم ان قتيلنا شهيد وقتيل من اعتدى علينا في عذاب شديد))[١٤]

وهذا يعني في وعيهم السياسي ان القتال في سبيل الوطن شهادة وان ردهم على اعدائهم في سبيل وطنهم كان دفاعا عن مدينتهم من أي خطر خارجي يداهمها .

ولم يكن دور هؤلاء مقتصرا فقط على الاعمال الحربية وإنما كان لهذه النخبة دورا في ادارة مدينتهم وقت السلم وما يؤكد تأثيرهم هو ورود اسمائهم في الاوامر الصادرة من العاصمة في استنبول والموجهة الى الوالي او المتسلم في البصرة حيث تذكر: ((نقيب الاشراف ومدرسين كرام وباشا عيان طرقتلوالشيخ قاسم ...والرديني السيد محمود))[١٥] .

وإذا كان القاضي والمفتي وشيخ المشايخ وصاحب الطريقة قد ادو دورا مهما في قيادة المجتمع البصري وفي صنع القرار السياسي الذي تضمن عملا سياسيا منبثقا عن وعي سياسي ركز ذلك المفهوم في ممارستهم اليومية . فان صاحب الوظيفة الدفاعية المتمثلة بالعائلات ذات الاصول القبلية لاسيما بعد نزوحها من الصحراء الة المدينة ثناء القرن السابع عشر قد ارتكز وعيها السياسي بسبب ممارستهم اليومية حول وعي سياسي لا يقل اهمية عن اصحاب الاصول الدينية . ولمعرفة ذلك ينبغي القاء الضوء على تلك المستجدات التي خلفت ذلك الوعي .

ان موقع البصرة منحها خصوصية للقيام بالوظيفة الدفاعية بدلا من السلطة العثمانية ، فالبصرة في موقعها على رأس الخليج العربي تحيطها مخاطر انية وأخر دائمة . فمن ناحية الشرق فان الفرس ادوا ادوارا مهما في تأجيج الصراع من خلال هجماتهم وتحرشهم خلال القرن السابع عشر والثامن عشر متمثلة في هجمات شاه عباس عام ١٦٣٩ وهجمات نادر شاه ١٧٤٣ وكريم خان الزند ١٧٧٥-١٧٧٩[١٦] اما من ناحية الغرب فان متاعبها متأتية من القبائل المتنقلة في الصحراء لاسيما في موسم جني التمور . ولهذا فان الاعتماد على هذه العائلات قد منحها ثقة بان تأخذ على عاتقها قيادة المجتمع مما جعلها اكثر وعيا من غيرها في ادارة المدينة من خلال نظام الالتزام والنطارة والذي اقتصر على عائلة ال شبيب والنجادة وال الصباح[١٧] .

لقد نقل لنا لونكريك وصف لاوتر الذي زار البصرة خلال عام ١٧٣٨-١٧٣٩ حول شخصية الشيخ سعدون ال شبيب رئيس قبيلة المنتفك وظهوره زعيم للمنطقة حيث وصف الاجتماع الذي دعا له والي الحسكة جميع شيوخ المنطقة فسلم ذلك الوالي هدايا الى جميع الشيوخ باستثناء الشيخ سعدون الذي اعتقله وأرسله الى بغداد جزاء من طموحه الذي كان يرمي لسلطنه العرب[١٨].

مصطلح سلطنة العرب تعني مفهوما قوميا مضادا للعثمنه ولهذا فلا يمكن تجاهل ذلك الموقف الذي كان وراءه وعي سياسي في استقلال تلك المناطق من الدولة العثمانية وخوف السلطة العثمانية من هذا التحرك وإذا كان سعدون قد حاول ان يرمي الحصول على سلطنة العرب . فان ثوينمي ابن عبد الله السعدون ال شبيب حفيد سعدون ال شبيب استطاع ان يترجم تلك الامنية واقع عملي من خلال سيطرته على مدينة البصرة عام

١٧٨٥ واعتقال موظفي الدولة العثمانية وقائد الاسطول العثماني في شط العرب ومصادرة املاكهم وأموالهم وإحلال الموظفين العرب محلهم وبذلك ((عادت حكومة البصرة العربية))[١٩].

ولا يقل اهمية عن هذا التو جهة النجادة الذين سيطروا على الزبير وباشروا في ادارتها بعيدا عن ايدي العثمانيين كأمارة مستقلة[٢٠]. هذا الوعي المستمد من تجربة التراث الاسلامي المتمثل بالقاضي والمفتي وإمام الجامع ورئيس الحلقة الدينية والمستمد من العرف القبلي كان نواة الاتجاه الوطني الذي اصبح واضحا في بداية القرن العشرين .

ولكن السؤال الذي يطرح هنا كيف استطاع الوعي ان يتحول من مفهومه التقليدي المتأثر في الشريعة الاسلامية والعرف القبلي الى الاتجاه الوطني في مفهومه الحديث . لمعرفة ذلك التحول الذي اثر في مسار الوعي السياسي في البصرة والذي حوله من وعي ديني اسلامي سلفي الى وعي وطني ليتماش مع التيارات الفكرية المعاصر . الابد من القاء الضوء على تلك المستجدات .

على الرغم من حقبة مدحت باشا في العراق قد تساوي وجود الحملة الفرنسية في مصر واقل بكثير من تجربة محمد علي في مصر ايضا . فان الحقبة على قصرها قد اثرت في مفاصل الحياة العراقية ومن ضمنها البصرة . اذ هيأت تربة صالحة لانتقال الوعي السياسي من وعي تقليد معتمد على العلوم الدينية والأعراف القبيلة ومتأثر بالغيبيات التي جعلته لا يستطيع ان يتجاوزها الى وعي مستلهم من القوانين البشرية كاسرا الطوق الذي حول رقبته. والسؤل الذي يطرح هنا ما دور مدحت باشا في ذلك التغير ؟

جاء مدحت باشا الى العراق وهو يحمل مسبقا عن احوال العراق يتمحور حول كون العراقيين يملكون عقولا يمكن تنشيطها لتنفيذ سياسته[٢١]. ولهذا فقد نفذ بعض الاعمال التي من شأنها تقوية سلطته التي كان لها تأثير فعال . ومن اهم هذه الاعمال تأسيسه مجلس ادارة يكون بمعية الوالي او المتسلم ومؤلفا من موظفي السلطة العثمانية وأشخاص منتمين من الاهالي اثنين من المسلمين واثنين من غير المسلمين مهمته دراسة اساليب التنمية الاقتصادية من الزراعة والتجارة ومناقشة ما يقدمه الوالي من مقترحات بشان الولاية الى موظفين واستجوابهم[٢٢]. هذا الهيكل المنصوص عليه على مستوى الولاية نلاحظ ايضا على مستوى السنجق والقضاء والناحية لكن في حدود صلاحيات اضيق من مركز المدينة .

ان هذه التجربة ترجعنا الى ما قام به نابليون ثناء تواجده في مصر فقد اسس مجلس وزراء ومجلس نواب ومجلس القضاء . هذه التجربة سواء في مصر او العراق كان لها الاثر في تبلور الفكر السياسي اذ ان الاهالي استفادوا من هذه المجالس من ناحيتين الاولى انهم شاركوا الاول مرة في صنع القرار السياسي الذي يهم مدينتهم ولو بصورة محددة بعد ان كان مقتصرا على مفاصل السلطة العثمانية في الولاية وثانيا ان هذه التجربة كانت الهدف منها تدريب الاهالي على الحكم المحلي وفق نمط جديد بدلا من النمط القديم .

اما انشاء المدارس بمختلف مستوياتها فقد كان له نصيب في ذلك التغير فقد اسس مدحت باشا المدارس الرشيدية والمدنية والعسكرية ومدرسة الفنون والصنائع وكان لتلك المدارس تاثيرا واضح من خلال نمط التعليم فيها اذ درست فيها اللغة التركية والفارسية والانكليزية . فضلا عن العربية والمواد الاجتماعية والعلوم الرياضية [٢٣] ان هذه المدارس فتحت تجربة بعد ان كانت مقتصر على العلوم الدينية بصورة رئيسية اصبح للعلوم العقلية مجالا واسعا فيها كما فتحت المجال امام عدد من العراقيين بمواصلة دراستهم في اسنبول العاصمة كما ان هذه المدارس اذكت روح العربية وبواسطتها اسهم عدد كبير في بعض الجمعيات السرية سواء في استنبول او في العراق .

اما جريدة الزوراء التي صدرت في بغداد وجريدة ولاية البصرة التي صدرت في البصرة فان الهدف من نشأتها هو متابعة اعمال الولاية في بغداد او البصرة وتقديم اخبار الحكومة ، وبسبب كونها جريدتين حكوميتين فقد تخوف العراقيون من نشر افكارهم فيها ألا انهما ادتا دورا لا يقل اهمية عن بعض الاصلاحات الاخرى في تنشيط الحركة الفكرية في العراق عامة وفي البصرة خاصة[٢٤] ، فقد تسربت اليها بين اونة وأخرى ومضات فكرية في نواحي الحياة والدعوة للاتصال بالعالم الخارجي . كما ظهر على مساحتها بعض المقالات التي تخص دول اوربا كالحوادث التي وقعت في فرنسا وايطاليا وتلخيص بعض المقالات عن اوربا كما ظهرت على صفحاتها بعض المقالات التي تؤكد فضل الحضارة العربية الاسلامية في تطور اوربا .

اما الطباعة فقد اسهمت هي الاخرى من خلال طبع الكتب ونشر الافكار ورفد بعض المعلومات التي من شأنها توسع مدارك الاهالي في القراءة كما كان الفضل في تنشيط حركة التأليف مادام هناك من يجد مكانا لطبع ما يؤلفه . ان مدحت باشا في عمله _ الذي

يقصد به السيطرة التامة على العراق _ قد هيأ للوعي السياسي مستلزماته لكي يأخذ لـــه حيزا في افكار بعض الاهالي لاسيما اولئك المهيأة افكارهم لتقبل مثل هذا الوعي وهم النخبة .

كما شهدت البصرة بعد عام ١٨٧٠ تطورا ملحوظا في اتساع طرق المواصلات البحرية والاتصالات الهاتفية مما اثر في نقل البصرة من منطقة شبه مغلفة على نفسها الى منطقة مفتوحة على العالم الخارجي من خلال ماطرا على طرق المواصلات من نمو تمثل فـــي فتح قناة السويس[٢٥] ، وما تبع ذلك من تطور كما ان مد الاسلاك الهاتفية عبر العراق من الهند الى اوربا وتسير السفن التجارية من والى البصرة قد عمق ذلك الاتصال .

ان هذا الاحتكاك المباشر وغير المباشر مع العالم الخارجي افرز حالة ادت الى نشر الوعي السياسي وتعميقه في المجتمع البصري . فالبصري الذي كان يجد في تجربة سلفه من ابناء وطنه التجربة الفريدة التي عدها الافضل في اغتنائها لأنه لا يملك غيرهـــا اصبح بعد هذا التاريخ مطلعا على تجارب الامم الاخرى بعضها قريبة والعـــض الاخـــر بعيدة من خلال الرحالة السياسيين والمستشرقين الاوربيين الذين زاروا العراق فضلا عن المنشورات الادبية والسياسية التي تدخل الى العراق .

ومما يدل على ذلك _ على سبيل المثال لا الحصـــر _ ان جريـــدة الجوانـــب لصاحبها احمد فارس الشدياق بدأت ترسل بانتظام الى العراق وأصبح لهـــا وكـــلاء فـــي الولايات العراقية ووصفها البرت حوراني :

((...انها اول صحيفة عربية ذات شان ...الاول في مسرح الاحداث السياســـية للحيـــاة العالمية قابل بين الـــحياة الاوربية وبين الشرق وتفضل الاولى على الثانية))[٢٦]

ان هذه التجربة ادت الى زيادة تبلور الوعي من ناحيتين : الاولى مـــن خـــلال الموضوعات التي طرحتها كما اشار البرت حوراني والثانية بدأ العراقيين يراسلون هذه الجريـــدة وكتب البعض الاخر في صفحاتها التي اصبحت ساحة لنشر افكارهم وتثقيفها وتطويرها .

ولم تكن جريدة الجوائب وحدها بل هناك مجلة مهمة اخرى كان لها الاثر ونعني بها مجلة الجنان والتي تعد الاخرى سجلا للنهضة الفكرية في البلاد العربية اذ كانت ميدانا فسيحا تتبارى فيها بعض الاقلام في الادب والعلم والسياسة[٢٧]. ومن خلال تلك الصحف والمجلات وصلت افكار رفاعة الطهطاوي عبر عن مفهوم الوطن والوطنية والتمدن كما وصلت افكار خير الدين التونسي واحمد فارس الشيدياق ورشيد رضـــا وعبـــد الـــرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهم .

ان الاتصال الفكري بين العراقيين والمفكرين العرب قد هيأ الذهنية البصرية لاستقطاب الافكار الجديدة التي اثرت فيما بعد في الذهنية القديمة المختزلة فحولتها الى وعي يبحث عن الهوية العربية من خلال تحرير العقل . لم تكن العوامل السابقة وحدها قد حددت مسيرة الوعي السياسي في البصرة ،فقد كان للعوامل الاقتصادية لا تقل اهمية عن ذلك .

لقد شهدت البصرة انفتاحا اقتصاديا اثر في البنية الفوقية كما اثر في البنية التحتية للمجتمع البصري والتي اثرت فيما بعد على الوعي السياسي التمحور من التقليد الى التجربة الحديثة . ان التجارة ونموها ادى الى اتساع شراء الأراضي الزراعية وتعميرها من والى العوائل المتنفذة في البصرة وهي العائلات الدينية نداك كما ان التجارة البحرية ادت الى استقرار الكثير من البيوت التي كانت تشتغل في القوافل التجارية قبل تحول التجارة الى قناة السويس بعدما اصاب تلك التجارة من نقص في حجمها .

ان هذا التغير ادى الى استقرار اولئك التجار في المدينة ومن مختلف ولايات العراق انذاك ومن ثم شراء الأراضي الزراعية اذ اصبح الطابع النقدي للأراضي الزراعية احد منجزات تلك الحقبة وبذلك ادى الى ظهور عائلات ذات تأثير اقتصادي لتحكمها في الزراعة والتجارة في ان واحد وكان بعض تلكك العائلات من اصول دينية مثل عائلة النقيب وباشا عيان والرديني والطبطبائي والمفتي وال حللي والانصاري والبعض الاخر من عائلات ذات اصول قبلية مثل السعدون والصكر والزهير والمشري والمنديل والشعبي والصانع[٢٨]

من جهة اخرى لم يكن الانفتاح الاقتصادي مقتصرا على ظهور تلك العوائل بهذا التأثير وإنما اثر في سلوك تلك العوائل فقد اصبح منطلقا من مقتضيات الانتاج ومتطلبات الاستهلاك . اذ اصبحت الكلمة العليا للربح والدعاية والتنافس فضلا عن كون هؤلاء قد شكلوا اهمية اقتصادية من حيث امتلاكهم الأراضي الشاسعة ذات الانتاج من جهة وتحت رعايتهم عدد من الفلاحين الذين يشتغلون في تلك الأراضي فأصبحت هذه العائلات تمتلك قوى اقتصادية مؤثرة في مسيرة المجتمع . كما اخذت هذه الع٨ائلات تبتعد شيئا فشيئا عما كانت عليه سابقا اذ اصبح تأكيد الجانب المادي من الحياة والسعادة الدنيوية بديلا عن ذلك واضمحلت الافكار القديمة وحل محلها الافكار الجديدة .

ان التعاون بين اصحاب الأراضي والتجار والتفتيش عن حياة اكثر رخاء من السابق . فضلا عن امتلاك تلك العوائل من وعي كان له الاثر في وضع النواة النشوء

الوعي السياسي في البصرة وتبلوره حيث كان يسير في مسارات معقدة من التعبير بين الولاء الى السلطة العثمانية وبين الاستقلال والتفتيش عن حليف يساندها لتجاوز اشكالية التأخر الذي اصاب مدينتهم وإيجاد كمنقذ تلك المدينة .

وهنا اخذ التفكير يتركز حول اطار جديد تمثل بمشروع نهضوية الامة من خلال قيادة المجتمع العربي على طراز خاص من التحديث اتخذ من التمدن الاوربي مثالا له فلا غرابة ان يلاحظ كيري احد الرحالة البريطانيين وصاحب كتاب تركية الاسيوية عام ١٨٧٨هذا التوجه لدى البصريين .

من خلال النص الذي نقله لوريمر في كتابه دليل الخليج يمكن ملاحظة ذالك:

اولا – اثر انفتاح العراقيين على الخارج وخاصة كمنطقة بومباي على شريحة اجتماعية ذات ثقافة معينة معظمهم من حائزي الأراضي الزراعية . ان هذه الشريحة بدأت تقارن مدينة بومباي لكونها ميناء تجاري مهم ينعم برخاء الاقتصادي بسبب انفتاحه على العالم الخارجي مع ميناء البصرة ذي المرافق المهملة واهم ما يميزه تأخره في كل النواحي عما يناظره من الموانئ الخارجية .

ثانيا– يبين النص السابق الهاجس الذي يتابع البصريين لكون السلطات العثمانية ايامها معدودة وان استقلالها لم يعد له وجود في ذلك الوقت وهذا يعني ان البصريين اصبح لهم وع اولا اثر انفتاح العراقيين على الخارج وخاصة منطقة بومباي على شريحة اجتماعية ذات ثقافة معينة بدأت تقارن بين سياسي يرى في الدولة العثمانية دولة ضعيفة بسبب الحروب التي خاضتها ضد روسيا وان الاخيرة سوف تبتلع املاك الدولة العثمانية ولذلك تصيح ولايتهم من حصة روسيا . والبصريون في رأي كيري ميالون الى بريطانيا لاعتقادهم ان الاخيرة اكثر تقدما من روسيا فضلا عن ذلك فان هناك علاقات تجارية مع بريطانيا .

ثالثا– اصبح لدى الاهالي اعتقادا بان الدولة العثمانية لا يمكن الاعتماد عليها في تقديم الخدمات من شانها تطوير مدينتهم ولابد للأهالي من التفتيش عن حليف لهم لا إنقاذهم وبهذا كانت بريطانيا الهدف الاول .

من خلال ما تقدم يتضح ان التأثيرات الخارجية في الوعي السياسي قد اثرت في تغير وجهة نظر البصريين من الاتجاه الذي كان يسير ضمن اطار الدولة الاسلامية المتمثل بالعثمانيين الى وعي سياسي يبحث عن مصير مدينتهم وتقدمها فيخرج ذلك الوعي

من دائرة الفكر السائد في تلك الحقبة ويلتحق في دائرة الاسباب والتقدم حتى ولو كانت تلك الاسباب تتعارض مع الوعي القائم انذاك .

ربما يتبادر الى الذهن هنا الشك في الركون الى مثل هذا النص في تقيم مرحلة من المراحل التاريخية او جعله مقياسا اساسيا في التقييم . ولكن الشك يزول من خلال ما اكدته الاحداث التاريخية التي تدعم راي كيري . فقد حجزت السلطات العثمانية قاسم الزهير احد شيوخ النجادة عام ١٨٨٢ لموقفه المعرض من سياسة الوالي العثماني في البصرة ارسلته الى العاصمة (اسطنبول)[٢٩] وقد استخدم الاسلوب نفسه مع ناصر السعدون رئيس قبيلة المنتفك وعندما تدخلت احدى الشخصيات المتنفذة في البصرة المتمثل بشخصية عيس القرطاس لدى الحكومة العثمانية لإطلاق سراح قاسم الزهير لم يفلح ، ولكن عاد وهو يمتلك قناعة تامة ان سبب حجز قاسم الزهير يرجع الى خشية السلطات العثمانية من نجاح الزهير في قطع البصرة ومحاولته الاستقلال عن الدولة العثمانية[٣٠]

ان هذه الظروف السالفة الذكر اضافة الى ما تمتلك تلك العوائل من سلطة تضاهي السلطة العثمانية في مدينة البصرة تدل على وجود الوعي السياسي وتبلوره ، فلا غرابة ان تتزعم القيادة السياسية في اواخر العهد العثماني من خلال الاحزاب والجمعيات السياسية التي ظهرت على الساحة العربية بصورة عامة والبصرة بصورة خاصة .

بالإمكان هنا متابعة تلك الاحداث ودور الشخصيات وجذورها التاريخية . اذ ساندت بعض الشخصيات النداء الذي اطلق اثر اعلان الدستور ١٩٠٨ لكونه يتلاءم مع اهدافهم ، ولم يقتصر ذلك الدور على مساندة تلك التغيرات السياسية في العاصمة فقد اسهمت بعض العائلات البصرية في تأليف احزاب سياسية

حزب الحرية والائتلاف

الفت العناصر المعارضة للاتحاديين في تشرين الثاني عام ١٩١١ هذا الحزب وقد ايد معظم البصريين هذا الحزب وقد فتتح فرع الحزب في البصرة في العام نفسه وعقد اول اجتماع في دار السيد طالب النقيب في البصرة حضره حوالي (١٠٠) شخص من وجهائها وتم انتخاب الهيئة الادارية من :(٣١)

١- السيد طالب النقيب الرئيس الاول
٢- الحاج محمود باشا العبد الواحد الرئيس الثاني

٣- عبد الله باشا عيان النائب للرئيس

٤- السيد عبد الوهاب الطبطبائي .

٥- الحاج محمود النعمة ، امين الصندوق

٦- سليمان فيضي ، معتمد الحزب

٧- احمد الصانع عضوا

٨- عبد الطيف المنديل عضوا

ولو لقينا نظرة الى جذور تلك العوائل لوجدنا ادلة على قولنا فالسيد طالب النقيب يرجع الى عائلة دينية كانت مسئولة عن منصب النقابة في البصرة وعبد الله باشا عيان ينتمي الى عائلة كانت مسئولة عن الحلقة الكوازية وعبد الوهاب الطبطبائي ينتمي الى عائلة كانت مسئولة عن الافتاء الشافعي . اما اسرة الصانع والمنديل من الاسر ذات الاصول القبلية من الدواسر اما النعمة والعبد الواحد فان ظهور تزامنها مع انفتاح الاقتصادي لمدينة البصرة هذه العائلات قد حافظت على استمرارية سلطتها القديمة بإطار جديد .

اما اهداف الحزب فكانت لا تتعد المطالبة بالمساواة بين العرب والأتراك وضرورة الاصلاح في الامبراطورية العثمانية وإنهاء سياسة الاضطهاد[٣٢] .

استغل القنصل البريطاني هذه الفرصة حيث زار المقر وابدى استعداده لتقديم المساعدات حيث اقترح مرابطة احد السفن الحربية في شط العرب خشية اتخاذ الحكومة اجراءات معادية للحزب وقد اندهش السيد طالب من هذا العرض بدون أي مقدمات كما رد على القنصل بعدم وجود حاجة لمثل هذه الحماية كما اخبر القنصل ان الحزب غني بحماس اعضائه وبأموالهم وانه سيعمل لمصلحة العرب وحدهم وليس لمصلحة دولة اخرى وان كفاحه في الوقت الحاضر يعتبر كفاحا داخليا لا يتناول الجانب الدولي[٣٣].

جمعية البصرة الاصلاحية :

نشط البصريون بتأسيس جمعية البصرة الاصلاحية عام ١٩١٣ على غرار حزب للامركزية في القاهرة والتي ضمت الاعضاء انفسهم لحزب الحرية وائتلاف اما اهم بع اهدفها فهي[٣٤]:

١- ان يكون العراق ارضا عثمانية تحت راية الاهلال .

٢- يعين الوالي من الحكومة المركزية على ان يكون عراقيا مسلما بعاداته وتقاليد العشائر المحلية وان يعين مدير المالية والقاضي والمتصرف ومدير الكمارك والبريد والبرق بعد استشارة المجلس العموم وان يكونوا ملمين بالغة العربية ة.

٣- العربية هي اللغة الرسمية في جميع الدوائر الولاية

٤- يخدم الضباط العرب في بلادهم حذرا من وقوع سوء تفاهم بين الامة وجيشها

٥- تدرس جميع العلوم والفنون في المدارس باللغة العربية مع العناية بالعوم الدينية وللغة التركية[٣٥] .

يتضح من خلال برنامج الجمعية انها طالبت بلامركزية في الحكم وقد تمخض هذا التحرك السياسي عقد اجتماع في دار السيد طالب حضره معظم اعضاء الجمعية وكان من نتائجه رفع مذكرة الى استنبول طالبت فيها بالصلاح الذي يضمن استقلال البصرة . كما اخذت جريدة الدستور لسان حال الجمعية تطالب بتأليف مجلس عمومي للولاية كما اخذت تنشر سلسلة من المقالات الموضوعية حول الوضع في العالم وجوانب الاصلاح .

اعتبرت حكومة الاتحادين ان الحركة التي شاهدتها البصرة ليست ألا خيانة للدولة العثمانية فبادرت الى تنسيب فريد بك متصرفا للتخلص من السيد طالب قائد الحركة في البصرة واثنى عشر رجلا اخر من المناوئين لهم وبسبب هذا الموقف تزعمت الجمعية خط الكفاح المسلح حيث تم قتل فريد بك في ٢ حزيران ١٩١٣ .

هكذا اخذ الوعي السياسي في البصرة خط الثورة ضد السلطة العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى .

يتضح من خلال ما تقدم ان الوعي السياسي في البصرة خلال العهد العثماني سار مسارات مختلفة فهو في البداية ولد في اطار الوعي الديني عندما اخذت العائلات الدينية على عاتقها حماية البصرة من المخاطر الخارجية ومن خلال عملها تركت ذلك الوعي ليصبح قيادة المجتمع ثم اخذ شيا فشيئا نحو التحديث بعد ان تأثر بتجربة الاخرين . ومع ذلك فان هذا الوعي لم يستطع ان يخرج عن الموروث اذ بقي بين التجربة العثمانية فهو لم يستطع الخروج عنها وبين الاصلاح الذي وجده عند الاخر

الهوامـــــش

١–حول الارث العثماني راجع،جب هاملتون وهارولد بون ، المجتمع الاسلامي والعرب ، ترجمة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٧١

٢– الدكتور وجيه كوثراني ، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولايات العثمانية في بلاد الشام ، بيروت ، ١٩٨٨، ص ٤٢

٣– المصدر نفسه ، ٤٢

٤–– كوثراني ، المصدر السابق ، ص ٤٢

٥– المصدر نفسه ، ص ٤٥

٦– محمد انيس ، الدولة العثمانية والمشرق(١٥١٣–١٩١٤)، القاهرة ، ١٩٨١، ص ٧٣

٧– ج.ج.لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٣، قطر، بدون تاريخ، ص ١٧٦٣

٨– طالب جاسم الغريب ، انتقال حيازة الارض في البصرة نهاية العهد العثمـــاني بدايـــة الاحتلال البريطاني ، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة البصرة لنيل شهادة الكتوراه في فلسفة التاريخ الحديث

٩ –عماد عبد السلام رؤف ، صمود البصرة أثناء حصار نادر شاه عام ١٧٤٣ ، مجلـــة الاستاذ ، العدد١، بغداد، ١٩٧٨

١٠–عبد الرحمن عبد الله السويدي ، تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١١٨٦–١١٩٣ (١٧٧٢ –١٧٧٨) ، تحقيق الدكتور عماد عبد السلام رؤف ، بغداد ، ١٩٧٨، ص ٢٨

١١– الاوقاف سجل رقم ١ ، وقفيـــة ســـنان باشـــا لشـــيخ حبيـــب الله فـــي رمضـــان ٩٨٧هـــ(١٥٧٩م)

١٢– نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة ١٧٦٥، ترجمـــة ســـعاد هادي العمري ، بغداد، ١٩٥٥، ص ١٥

١٣ نيبور ، المصدر نفسه ، ص ١٥

١٤ رؤف ، المصدر السابق

١٥ بالامكان الوقوف على ذلك مراجعة السجلات المحكمة الشرعية .

١٦–لوريمر ، المصدر السابق

١٧-نظام النطارة هو نظام متبع في العهد العثماني ، بمقتضاه تمنح الدولة العثمانية كمية من التمور الى من يقوم بحماية الأراضي الزراعية من القبائل المتواجد في الجهة الغربية من البصرة .

١٨- ستيف همسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق ، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٨، ص ١٩٠

١٩- المصدر نفسه ، ص ١٩١

٢٠- للمزيد راجع ، حسين علي القطراني ، الزبير في العهد العثماني ١٥٧١-١٩١٤، دراسة في الاحوال العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة البصرة ، ١٩٨٨

٢١- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد

٢٢-عبد العزيز نوار سليمان ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا حتى مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨

٢٣- الدكتور خليل احمد ، التعليم في العراق (١٨٦٩-١٩٣٢) ، البصرة ، ١٩٨٢، ص ٣٦-٤٠

٢٤- لمعرفة المواضيع التي كانت الصحيفة تهتم بها راجع المكتبة المركزية وكذلك دار الكتب والوثائق في بغداد

٢٥- حول افتتاح قناة السويس ، راجع ، شارل عيساوي ، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤، ترجمة رؤف عباس حامد ، لبنان ، ١٩٩٠ ، وكذلك الدكتور محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٩٠

٢٦-البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت

٢٧- الدكتور فاروق صالح العمر ، الجنان ، بغداد ، ١٩٨٩وكذلك راجع مجلة الجنان ، الجزاء الاول ، كانون الثاني ١٨٨٢ الى الجزء ١٢ حزيران ١٨٨٢

٢٨ راجع الغريب ، المصدر السابق ، الفصل الثاني والثالث

٢٩-لوريمر ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠١-٢٣٠٢

٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٣٠٣

٣١- يقظان سعدون العامر، الصرة في العهد العثماني ، موسوعة البصرة ، ١٩٨٩، ص ٢٢٨

٣٢ – سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ٩٨

٣٣– فيضي ، المصدر السابق ، ص ٩٧

٣٤ – فاروق صالح العمر ، الاحزاب السياسية في العراق ، بغداد ، ١٩٧٨، ص ٢٦

٣٥ – محمد صالح ، حركة اليقظة العربية ، مصر ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٢ .

المصـــــــــادر

١ – الوثائـــق

– الاوقاف سجل رقم ١ ، وقفية سنان باشا لشيخ حبيب الله في رمضان ٩٨٧ه(١٥٧٩م)

٢ – الكتب

١– احمد ، الدكتور خليل ، التعليم في العراق (١٨٦٩–١٩٣٢) ، البصرة ، ١٩٨٢

٢– بون ، جب هاملتون وهارولد ، المجتمع الإسلامي والعرب ، ترجمة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٧١

٣– حسن ، الدكتور محمد سلمان ، التطور الاقتصادي في العراق ، بيروت ، بدون تاريخ

٤– حوراني، البرت ، الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت

٥– سليمان ، عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا حتى مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨

٦–السويدي ،عبد الرحمن عبد الله ، تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١١٨٦–١١٩٣(١٧٧٢–١٧٧٨) ، تحقيق الدكتور عماد عبد السلام رؤف ، بغداد ، ١٩٧٨١٠

٧– العامر يقظان سعدون، اليصرة في العهد العثماني ، موسوعة البصرة ، ١٩٨٩

٨– العزاوي ،عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد

٩– العمر، فاروق صالح، الاحزاب السياسية في العراق ، بغداد ، ١٩٧٨

١١–عيساوي،شارل، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠–١٩١٤، ترجمة رؤف عباس حامد ، لبنان ، ١٩٩٠

١٢– فيضي، سليمان ، في غمرة النضال ، بغداد ، ١٩٥٩–

١٣- كوثراني الدكتور وجيه ، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولايات العثمانية في بلاد الشام ، بيروت ، ١٩٨٨,

١٤- لوريمر ،ج.ج. ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٣، قطر، بدون تاريخ، ص ١٧٦٣

١٥- لونكريك ، ستيف همسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق ، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٨-

١٦- محمد صالح'حركة اليقضة العربية ' مصر ،١٩٧٢

١٧- نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة ١٧٦٥، ترجمة سعاد هادي العمري ، بغداد، ١٩٥٥

٣-الدوريات :

- رؤف ، عماد عبد السلام، صمود البصرة أثناء حصار نادر شاه عام ١٧٤٣ ، مجلة الاستاذ ، العدد١، بغداد، ١٩٧٨ .

٤- الرسائل الجامعية :

١-الغريب طالب جاسم ، انتقال حيازة الارض في البصرة نهاية العهد العثماني بداية الاحتلال البريطاني ، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة البصرة لنيل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الحديث .

٢- القطراني حسين علي ، الزبير في العهد العثماني ١٥٧١-١٩١٤، دراسة في الاحوال العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة البصرة ، ١٩٨٨ .